

النص مقدس والفهم غير مقدس

الكاتب: عبد الله بن صالح العجيري وفهد بن صالح العجلان



زخرف القول

معالجة لأبرز المقولات المؤسسة
للانحراف الفكري المعاصر



عبدالله بن صالح العجيري د. فهد بن صالح العجلان

هذه المقوله تتخد في الواقع أشكالاً متعددة من التعبير لكنها تتحد في المضمون، كقولهم مثلـ (النص مقدس ولكن فهمه غير مقدس) أو (يجب المحافظة على مسافة بين النص وبين قارئ النص) أو (فهمك للنص ليس هو النص) .. أو غير ذلك من التعبيرات. وهي إطلاقات تسعى للمحافظة على نوع قدسيّة للنص، يمكن من خلال إطلاقها المجمل تسريب بعض المضامين، ولذا فإن هذه المقوله تمثل واحدة من أشهر الشبهات حضوراً في الخطاب العلماني العربي، بل يمكن عدّها الشبهة المركزية التي يدور عليها هذا الخطاب.

محصلة هذه الشبهة وخطورتها

ومحصلة الشبهة النهائية أن الشريعة تكتسب قدسيّة زائفة نتيجة عدم الإقرار بطبعتها الحقيقة، إذ هي لا تعود في نظرهم أن تكون قراءة بشرية للوحي، وفعل إنسانياً ينتابها ما ينتاب الفعل البشري من الخطأ والصواب، فالشريعة لا تفسر نفسها بنفسها، وإنما يفسرها الإنسان وب مجرد نزول الوحي إلى الناس ومع لحظة قراءتهم له يتأنسن، ويتحول من كونه منطوقاً إليها إلى أن يكون مجرد مفهوم بشري.

وبعيداً عن تفاصيل المشهد المرسوم هنا، والذي يتغافل عن حال النبي، صلى الله عليه وسلم، المعصوم الذي كان يأتيه الوحي في صورته (قرآنًا وسنة) بما يشكل ضمانة في مسألة تلقي الوحي وفهمه وتبلیغه وإفهامه؛ فإن مكمن الإشكال الرئيس هنا هو في تصوير نصوص الشريعة وكأنها مزيج هلامي متتشابه لا يتمايز منه شيء عن شيء من جهة البيان والوضوح والقطعية، بل كل ما فيه قابل لقراءات متعددة متکاثرة.

ومع افتتاح مناهج القراءة الأجنبية وتعدداتها، والسعى إلى توظيفها في فهم الوحي، ازدادت هذه القراءات والتفسيرات كما وتباعدت كيًفاً.

والحق الذي لا محيى عنه أن الوحي فيه المحكم الواضح البين بنسه الذي هو غني عن التأويل والاجتهاد البشري، وفيه ما هو دون ذلك. قد أوضح الوحي ذاته هذه الطبيعة، فقال تعالى "هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَآخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ" فالنص القرآني مشتمل على ثنائية المحكم والمتشابه، و"المحكمات من آي الكتاب: ما لم يحتمل من التأويل غير وجه واحد؛ والمتشابه منه: ما احتمل من التأويل أوجهها" (1)

وقد قال الطبرى كاشفاً عن استغناء بعض المحكم عن جهد التبيين "وقد استغنى بسماعه عن بيان بيئته" (2). ثم بيّن أن بعض المحكم تحصل على وصف الإحكام لبيان الله تعالى أو رسوله، صلى الله عليه وسلم، عن معناه فقال "أو يكون محكما وإن كان ذا وجوه وتأويلات وتصرف في معان كثيرة، بالدلالة على المعنى المراد منه إما من بيان الله تعالى ذكره عنه أو بيان رسوله، صلى الله عليه وسلم، لأمته، ولن يذهب علم ذلك عن علماء الأمة" (3)

والمقصود التأكيد على بطلان ذلك التصور الذي يحيل النص القرآني كله إلى طبيعة سيّالة لا يمكن استثناءاتها أبداً.. ولحبر هذه الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس كلمة مهمة جداً في بيان ما يندرج تحت لفظ التفسير، فقال في الأثر المشهور "التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله" (4)

فلا يصح أن يصور الوحي بأنه قطعة نصية من المتشابهات لا يقبل الانضباط التفسيري، بل لا بد من استحضار أن النص المقدس منه ما هو بيّن بذاته ومنه ما يحتاج إلى اجتهاد ويحتمل الخلاف، والغفلة عن هذه الحقيقة الشرعية والمعنى العقلي الظاهر يجعل من الوحي مجرد قالب لفظي لا قيمة له ولا يوصل إلى معنى محدد، بل يمكن أن يوصل للنتيجة وضدها ويفسر بالشيء ونقضه.

أولاً: أنها تخالف المقطوع به من شأن هذا الوحي وبيانه ووضوحته، وتناقض ثناء الله على كتابه بأنه: مبين وبيان ونور وهدى وفرقان وكتاب أحكمت آياته

ويلزم منه جعل الحديث القرآني المتكرر عن حاكمة الشريعة وهيمتها، والرد إلى نصوصها في حال الاختلاف وبيان الفرق بينهما وبين حكم الجاهلية؛ عباثا لا فائدة منه، وإحالة على معدوم وتکلیفا بما لا يطاق.

ثانياً: أنها دعوى لا تُقبل في كلام البشر فكيف بالوحى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فلو تعاملنا مع كلام البشر بمثل هذا التعامل، فجعلنا التوقير لمجرد ألفاظهم، وأعطينا أنفسنا حرية النظر في تفسير كلامهم بحسب أمزجتنا، وما يمكن أن نقدر من المعاني؛ لما استقامت حياة الناس. وكيف يزعم زاعم أن نصوص العلماء وال فلاسفة والدساتير والأنظمة الأرضية، وكلام البشر عموما، كلها بينة واضحة توصل إلى معانٍ بينما كلام الله تعالى مقدس لفظا لا يدرك معناه على القاطع.

ثالثاً: أن من يتعامل مع النص بهذه الطريقة لا يتزمن المنطق ذاته عند محاكمة الفكرة التي ينطلق منها، فالاختلاف الواقع في تفسير النص الديني وقع مثله في المذاهب الوضعية الحديثة، الليبرالية مثلاً ليست شيئاً واحداً، بل ثم ليبراليات متعددة في الواقع، وكذا الماركسية والاشترافية والرأسمالية والشيوعية والديمقراطية وغيرها؛ كلها ليست في الواقع شيئاً واحداً، وإنما ثم تطبيقات وتنظيرات مختلفة، فهل يلتزمون مع هذا التباين والاختلاف أن تكون القداسة للفاظ هذه المفاهيم وعباراتها، ويكون من حق كل أحد أن يفسر أي مصطلح بأي معنى يريد حتى لو اجتمعت فيه التناقضات؟

ليس القصد هنا أننا نقر بأن هذه الأفكار والتيارات هلامية لا تحمل تصورات وأوصولاً كلية مشتركة، وإنما المقصود تجلية الخلل في سياسية الكيل بمكيالين عند محاكمة التشريع الإسلامي مقارنة بغيره، فيركز على الاختلاف

داخل النص الديني لإلغاء قدسيّة الفهم مطلقاً، وكأن بقية الأفكار تخلو من تعدد التطبيقات وتبادر النظريات.

رابعاً: أن حقيقة نفي المعنى من النص المقدّس ستؤول إلى نتيجة لا يتفطر لها كثيرٌ ممن يطلق مثل هذه العبارة، وهي أن لن يستطيع أن يرد أي قول أو فعل فيه غلو في الدين وهو مستند إلى النص، إذ الجواب عن سؤال الغلو يستدعي قراءة معيارية للوحى يصح من خلالها تصنيف الآخرين إلى أهل غلو وجفاء، فإذا أطلقت القول بنسبيّة الحق في الفهم، وزعمت أنها مثل هذه القراءة المعيارية الثابتة، فليس لك سبيل إلى تخطئة مخالف لك في الفهم مهما كان المخالف غالياً أو جافياً، فالخوارج في القديم والحديث لهم قراءتهم للنص الديني، فهل يقول أولئك إن قراءتهم للوحى قراءة اجتهادية مقبولة لا يصح لأحد أن يبادر إلى تخطئهم بإطلاق أو أن ينكر عليهم؟ وهذه إشكالية معرفية تدل على قصر نظر كثيرٍ ممن يريد أن يبيح لنفسه حق تفسير القرآن بغير أدواته دون أن يتتبّع أنه سيعطي هذا الحق أيضاً لمن يقف في الضفة المقابلة له تماماً.

والمقصود أن هناك دائرة من النصوص مما يستطيع الناظر فيها الجزم بمراد قائلها، فهنا يتطابق النص وفهمه، إذ الفهم هو روح النص ومعناه، وما دمنا قد جزمنا بتحصيله والوقوف عليه، فلنا أن ندعى أن الفهم هنا مقدس، إذ هو لا يعود أن يكون معنى النص المقدّس الذي أريد له تحصيله وفهمه.

أما النصوص الظنية التي تحتمل أفهاماً متعددة، فهذه الأفهams تمثل فضاءً لمعنى النص، إذ الاختلاف لا يرفع حقيقة أن للنص معنى، وأن هذا المعنى مقدس، وأن أحد أطراف الخلاف في فهمه قد صادفه، شريطة أن يكون السعي في تحصيل هذا المعنى وفق منهج موضوعي ومقصد صحيح، فالشيخ هنا وإن لم يقطع بصواب تفسيره للمعنى، لكنه يعتقد وجود هذا المعنى، وهو يسعى باجتهاد لإصابته، ويعتقد أنه أو غيره قد صادفه، وأن الأمة لا تخلو من مدرك له.

الإشارات المرجعية:

١. تفسير الطبرى (197-5)

- ٢ . تفسير الطبرى (201-5)
 - ٣ . تفسير الطبرى (201-5)
 - ٤ . أخرجه الطبرى في تفسيره (70-1)
- المصدر:

١ . عبد الله بن صالح العجيري وفهد بن صالح العجلان، زخرف القول:
معالجة لأبرز المقولات المؤسسة للانحراف الفكري المعاصر، ص 203

الكلمات المفتاحية:

شبھات # أباطيل # زخرف-القول # قداسة-النص

تنويه: نشر مقال أو مقتطف معين لكاتب معين لا يعني بالضرورة تزكية الكاتب أو تبني جميع أفكاره.